

التّاريخ بين موضوعيّة الآيّة وتهافت الرواية



محمد علي الباصومي

مُحتويات الكتاب

01المقدمة
03الفصل الأول - فلسفة التاريخ بين المقاربة البشرية والمقاربة القرآنية
031. قراءة نقدية لأهم النظريات المتعلقة بتفسير حركة التاريخ
031.1 عرض لأهم النظريات التي تمت صياغتها لتفسير حركة التاريخ
061.2 ملاحظات بخصوص مختلف النظريات المفسرة لحركة التاريخ
082. المنظور التوحيدي في فهم التاريخ
082.1 حث القرآن الكريم على استقراء التاريخ والإعتبار به
092.2 السنة كمصطلح قرآني يندرج ضمن فلسفة التاريخ
112.3 عرض لأهم السنن الإلهية من خلال استقراء القرآن الكريم
132.4 وقفة مع سنة تفرّق الأمم شيعاً بعد نزول العلم الإلهي
19الفصل الثاني - مقارنة الرواية لحركة التاريخ
191. فكرة انحداية الزمن وتقهره منذ العصر النبوي
191.1 الأفضلية في القرآن الكريم لا تكون إلا بصفة فردية
201.2 مناقشة القول بالخيرية والرضى الإلهي المطلق عمّن عايشوا النبي
241.3 مفهوم الصحبة في القرآن الكريم
281.4 أهم الروايات الواردة في هذا الباب
341.5 تعقيبات واستشكالات عامة
382. فكرة "الفرقة الناجية" وافتراق الأمة بين الآية والرواية
382.1 عرض فكرة "الفرقة الناجية" على القرآن الكريم
412.2 أهم الروايات الواردة في هذا الباب
422.3 تعقيبات واستشكالات
46الخاتمة

المقدمة

التاريخ هو فرع من المعرفة الإنسانية يستهدف جمع المعلومات عن الماضي في تسلسلها وتعاقبها، ويحقق في صحتها، ويحاول عن طريق إبراز الترابط بين هذه الأحداث توضيح علاقة السببية بينها، وبالتالي تفسير التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المختلفة. وأما فلسفة التاريخ، فهي عبارة عن النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية، والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مرّ القرون والأجيال، فكرة تقوم على أساس أنّ التاريخ لا يسير بطريقة اعتباطية وعشوائية، بي وفق مخطط معيّن.

ومن الجليّ أنّ دراسة التاريخ والبحث في السنن الكونية مطلب رباني، فالتأمل في القصص القرآني يدرك مغزى طلبه منّا الإعتبار حين يصف أحوال الأمم السابقة، حيث بين المولى سبحانه في ثنايا تلك القصص أو تعقيبا عليها سننه ونواميسه المتحكّمة في هذه الحياة، خاصّة المتعلّقة بتعاملهم مع رسائله وتوجيهاته الحكيمة، كما أمرنا الله عزّ وجلّ باكتشاف قوانينه، والذي يتم عبر السير في الأرض.

يشير إلى ما سبق عماد الدين خليل بقوله: "إنّ القرآن الكريم يجيء بمعطياته التاريخية من أجل أن يحرك الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام، ويبيّده في الوقت ذاته فردا أو جماعة عن المزالق والمنعرجات التي أودت بمصائر عشرات بل مئات الأمم والجماعات والشعوب". ويقول محمد عبده: "فالحياة لم تُخلق عبثا، إنما خضعت لسنن وقوانين... وقواعد ثابتة، ومن سار على سنن الله ظفر بالفوز وإن كان ملحدا أو وثنيا، ومن تنكّبها خسر وإن كان صديقا أو نبيا".

كما أنّ دراسة التاريخ والبحث في السنن الكونية مطلب عقلي، حيث تستخدم أداة فلسفة التاريخ في اكتشاف القوانين التي تقود حركة التاريخ، والنظر الكلي للظاهرة

التاريخية في الدول والحضارات صعودا وهبوطا، وفهم الماضي واستشراف المستقبل، وتعزيز التفكير المنهجي في حل المشاكل، وعملية الإحياء النفسي للأمة.

وضمن هذه السلسلة البحثية التي تحاول إثبات قوة وعمق المقاربة القرآنية أمام اضطراب وتهافت المقاربة الروائية، فإنني سأحاول الإجابة على سؤالين أساسيين: ما هي الفلسفة التي يقدمها القرآن الكريم - في حال وجودها - للتاريخ؟ وكيف يبدو تأثير العامل التاريخي على حركة التاريخ في الرواية؟

الفصل الأول – فلسفة التاريخ بين المقاربة البشرية والمقاربة القرآنية

1. قراءة نقدية لأهم النظريات المتعلقة بتفسير حركة التاريخ

1.1 عرض لأهم النظريات التي تمت صياغتها لتفسير حركة التاريخ

ظهرت نظريات متعددة لتفسير قوانين نهوض وانهيار الحضارات والدول، أهمها:

- التفسير الجغرافي، قال به أرسطو، فقالا بأن حضارة اليونان سببها مناخها المتقلب وجبالها الشاهقة التي تدعو إلى التأمل والتخيل. كذلك رأى مونتسكيو أنّ للمناخ كل الأثر على عقول المجتمع وأخلاقه، وأن الأخلاق لا تتلاءم مع البلاد الحارة وأن الفساد الخلقي يزداد كلما اقتربنا من خط الاستواء

- التفسير الروحي للتاريخ، والذي يقول بوجود روح كامنة في الكون تدفعه نحو التطور، وأن تأخر الدول وتقدمها يتم بإرادة إلهية. ويشمل هذا القول المثاليون من أمثال هيغل، والذي يقول: "بما أن العقل المطلق كله خير وفضيلة، فالتاريخ على هذا الأساس حكمة وعدالة، وما الحوادث التي تبدو للإنسان وكأنها شرور إلا خير أساء الناس فهمه لقصر إدراكهم في عالم المغيبات". كما يرى هيغل بأن تاريخ الأديان يقع في مركزه التاريخ الأول وهو تاريخ اليهودية، يليه تاريخ المسيحية ويليهِ تاريخ الإسلام ثم الأديان الأخرى

- التفسير بالعصبية، والذي اشتهر بقوله ابن خلدون، حيث اعتبر أنّ الدولة كائن حيّ يولد وينمو ثم يهرم ليفنى. ويرى ابن خلدون أنّ الدولة تمرّ بأربعة أطوار هي: طور الظفر والإستيلاء على الحكم غلبة وقهرا، وطور الإستبداد والإنفراد بالسلطة، وطور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك، وطور الهرم والإنقراض بسبب الإسراف والتبذير. وقد أكد ابن خلدون في نظريته على أهمية تأثير عامل العصبية القائمة على الدم أو الدين أو أي رابطة اجتماعية أخرى في جميع مراحل الدولة

- التفسير المادي للتاريخ، والذي أقامه ماركس على فكرة أن صراع الطبقات وملكية وسائل الإنتاج هما السبب المحرك لعجلة التاريخ. ويرى ماركس أن البشرية مرت بأربعة أدوار (أو عصور)، هي دور المشاعية البدائية (حيث لا ملكية لأي شيء، والإنسان يتنقل ويعيش بقدر حاجته)، ودور الرق (حيث أن سيطرة البعض على الأرض اقتضت أن يُستعبد الناس للعمل من أجل ذلك، فنشأت طبقة السادة وطبقة العبيد)، ودور الإقطاع (حين أصبح المجتمع منقسما إلى ثلاث طبقات: طبقة الإقطاعيين، أي مالكي الأرض، وطبقة الفلاحين، وطبقة العبيد)، ودور الرأسمالية (حين أدّى تقدم قوى الإنتاج إلى انقسام المجتمع إلى طبقة برجوازية، أي ملاك المصانع ورعوس الأموال، والعمال أو البروليتاريا، والذي هم بمثابة العبيد)، وإن العدالة تقتضي عند ماركس عودة الحياة البشرية إلى نقطة شبيهة بالبداية، حيث الحياة مشاع والظلم معدوم، فاقترح مرحلة أخيرة هي مرحلة المجتمع الشيوعي، والتي قدّر أنّ التاريخ يسير باتجاهها، وأنها حتمية تاريخية

- التفسير المادي للتاريخ، والذي أقامه ماركس على فكرة أن صراع الطبقات وملكية وسائل الإنتاج هما السبب المحرك لعجلة التاريخ. ويرى ماركس أن البشرية مرت بأربعة أدوار (أو عصور)، هي دور المشاعية البدائية (حيث لا ملكية لأي شيء، والإنسان يتنقل ويعيش بقدر حاجته)، ودور الرق (حيث أن سيطرة البعض على الأرض اقتضت أن يُستعبد الناس للعمل من أجل ذلك، فنشأت طبقة السادة وطبقة العبيد)، ودور الإقطاع (حين أصبح المجتمع منقسما إلى ثلاث طبقات: طبقة الإقطاعيين، أي مالكي الأرض، وطبقة الفلاحين، وطبقة العبيد)، ودور الرأسمالية (حين أدّى تقدم قوى الإنتاج إلى انقسام المجتمع إلى طبقة برجوازية، أي ملاك المصانع ورعوس الأموال، والعمال أو البروليتاريا، والذي هم بمثابة العبيد)، وإن العدالة تقتضي عند ماركس عودة الحياة البشرية إلى نقطة شبيهة بالبداية، حيث

الحياة مشاع والظلم معدوم، فاقترح مرحلة أخيرة هي مرحلة المجتمع الشيوعي، والتي قدّر أنّ التاريخ يسير باتجاهها، وأنها حتميّة تاريخية

- التفسير الدّوري للتاريخ، نظرية يقول صاحبها أرنولد توينبي أنه لا بد لكل حضارة من ثلاثة شروط: وجود الأقلية المبدعة، وأن يُفسح المجال للمبدعين للعمل، وأن توجد الظروف الجغرافية المساعدة والظروف المتحدية. ويرى توينبي أن نشوء الحضارات وبعثها يقوم أساسا على عمليات التحدي الجغرافية والبشرية التي تدفع للإستجابة والتحرك الخلاق سعيا للإقلاع الحضاري، حيث يقول: يواجه الإنسان في طريقه لبناء الحضارات مجموعة من التحديات، فيتعامل معها إما باستجابات ناجحة تؤدي إلى التغلب عليها والوصول إلى تحقيق النهضة المنشودة، وصولا للحضارة، أو إلى استجابات فاشلة لا تؤدي إلى تحقيق النهضة والحضارة. ويقسم توينبي هذه التحديات إلى قسمين: تحديات طبيعية مثل المناخ والجغرافيا والموارد الطبيعية، وتحديات بشرية مثل عدد ونوع السكان وثقافة المجتمعات وطبيعتها. ويؤكد توينبي أن العلاقة بين مستوى التحديات ومستوى الإستجابات علاقة طردية، أي أنه كلما ازدادت التحديات صعوبة كلما تصاعدت قوة الإستجابات

- نظرية نهاية التاريخ، يرى صاحبها فوكوياما أن سقوط الإتحاد السوفياتي واكتساح الديمقراطية الليبرالية أرجاء العالم، وانتهاء الأنظمة الشمولية، وانتصار فكرة الأسواق الحرة، كل ذلك صدّ باب التاريخ، وسيؤدي إلى نشأة مجتمع خال من الطبقات، وإلى الإتجاه نحو نهاية التاريخ. وعليه، فإن المؤلف يستبعد أن يكون التاريخ الكوني تاريخا دوريا يقضي على المنجزات الحديثة ليرجع للمرحلة السابقة. ويستند فوكوياما في الدفاع عن أطروحة التوجه الكوني نحو الديمقراطية على الثورة الحالية لتكنولوجية الإعلام، فالإنفجار التكنولوجي في المجال الإعلامي سيعطي في نظره الأفراد مزيدا من القدرات ويسرع من وتيرة الديمقراطية

- نظرية صراع الحضارات التي صاغها صامويل هنتنجتون ردًا على أطروحة نهاية التاريخ. وهذه النظرية هي عبارة عن إطار تحاوري قوي وعنيف بين عدد من الثقافات المختلفة فيما بينها، بسبب سعي كلٍ منها إلى فرض ذاتها وثقافتها على الأخرى. وقد اعتمد الكاتب لتبرير نظريته لقراءة التاريخ الإنساني، واستخراج خمسة أنماط أو أنظمة من صراع الحضارات، هي التالية: صراع الإمبراطوريات الزراعية الكبرى، صراع الإنسان ضد ما يحيط به من الاستبداد والطغيان على مر التاريخ، وتخلل هذه الفترة قدوم الرسائل السماوية، سعي الإنسان لتطوير الحركة التجارية، وعمله في سبيل ذلك على تحقيق مختلف الاكتشافات الجغرافية، قيام عديد الثورات، خاصة في أمريكا الجنوبية، نشأة الإمبراطوريات الصناعية الكبرى، وظهور كلٍ من الرأسمالية والليبرالية

- ثلاثية الحضارة، هي مقاربة مالك بن نبي لحركة التاريخ، أقامها على فكرة أن للحضارة ركنان: ركن خلقي وآخر مادي، وأن عوامل قيام أي حضارة يستلزم تفاعل ثلاثة عوامل: الإنسان والتراب والوقت، بالإضافة إلى عنصر الفكرة المحفزة أو الدين. كذلك يرى المؤلف أن كل من يفكر في النهضة عليه أن ينظر إليها من خلال ثلاثة عوامل: عالم الأفكار (المعتقدات والمبادئ وأنماط التفكير والقيم والمشاعر) وعالم الأشخاص (مجموعة النظم والقوانين التي تنظم علاقات الناس) وعالم الأشياء (كل ما ينتجه المجتمع من المنتجات والخدمات المحسوسة)

1.2 ملاحظات بخصوص مختلف النظريات المفسرة لحركة التاريخ

إن معظم الدراسات الإنسانية يطغى عليها البعد الذاتي، سواء في شكل قيم أو إيديولوجيات، وبالتالي لا يسلم التاريخ من التحيزات التي يبيدها المؤرخون تجاه مجتمعاتهم والقيم التي يؤمنون بها. ذلك أن العمل البشري والأكاديمي عموما يركز من ضمن عوامل عديدة ومتنوعة على بعضها، لأسباب منهجية، ولكن هذه

الضرورات تنعكس على إطلاقية النتائج. وما سبق يعني أنّ "المؤرّخ لا يمكن أن يصل إلى موضوعية العالم الطبيعي، كما أنه لا يمكن أن يتخلص من ذاتيّته التي تظلّ حاضرة بقوة في سرديّته، من حيث كون الكتابة التاريخية هي ضرب من تأكيد الإنتماء، وانفتاح وتواصل مع الغير عبر قناة الماضي".

من ناحية أخرى، فإنّ المؤرّخ يكتب وروح العصر التي شكّلت الأحداث هي نفسها التي شكّلت ذهنية هذا المؤرّخ، بسبب قربهِ من الأحداث ومعايشتها. وكما يقول هيغل: "إنّ الحاضر الحيّ في البيئة، من حولهم هو المادّة الفعلية التي يستخدمونها والمؤثرات التي شكّلت الكاتب هي نفسها المؤثرات التي شكّلت الأحداث التاريخية، الأحداث التي تُكوّن مادة روايته، وروح الكاتب هي نفسها روح الأحداث التي يرويها"، ذلك أنّ "علاقة الإنسان بالمعرفة التاريخية حميمية أكثر من علاقته بأي معرفة أخرى، لأنّ موضوع المعرفة والذات العارفة هنا يصعب الفصل بينهما".

وكمثال على عدم انفكاك قراءة التّاريخ والسّنن التي تفسّر حركته عن شخصيّة قارئه وبيئة حياته نظريّة ماركس القائمة على التفسير المادّي للتاريخ، إذ يؤخذ على أفكار هذه المدرسة التفسير التعسفي للمادة التاريخية، حيث أهملت العوامل القومية والعقائدية والمذهبية والنفسية والروحية وغيرها، واعتبرت الإنتاج كمُحدّد أساس لتشكيل العلاقات بين الأفراد، وأنّ قوانين الصراع الطبقي ونمو التشكيلات الاجتماعيّة والإقتصاديّة هي القوانين الحقيقيّة التي تحكم حركة التاريخ.

كما يمكن التأكيد على فكرة أنّ أيّ منتج ثقافي لا يتمّ بمعزل عن بُنية الواقع الذي أفرزه، يلاحظ البعض أنّ نظرية "نهاية التاريخ" لم تكن في الواقع سوى غطاء فكري يجسّد انتصار النظام العالمي الجديد الذي دخل القاموس السياسي لأول مرة حين استعمله الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب للإشارة إلى بروز القوة الأمريكية كقطب أوحّد، وإلى انتصار الفلسفة الليبرالية الديمقراطية على حساب الفكر الشيوعي

والإشترافي. وفي خضم نشوة التفوق، راح النظام الدولي الجديد يروج لمجموعة من المقولات الفكرية التي تعضده فكريا، ومن بينها مقولة نهاية التاريخ.

2. المنظور التوحيدي في فهم التاريخ

2.1 حث القرآن الكريم على استقراء التاريخ والإعتبار به

يقول محمد مجذوب بأنّ "القرآن الكريم دائما ما يوجّه الأنظار إلى استنطاق التاريخ واستقراء الحوادث والأسباب التي حطّت أقواما ورفعت آخرين، واستخراج القوانين التاريخية والإجتماعية منها، في دعوة لتوظيف تلك السنن في عملية بناء حاضر الإجتماع الإنساني وتسخير أشياء الطبيعية له. ولعل أبرز فكرة يتمخّور عليها القرآن الكريم عند تناوله لموضوع السنن هو أن ساحة التاريخ والإجتماع البشري محكومة بقوانين تُشابه إلى حدّ كبير تلك السنن والقوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية، بوصفها سنن ثابتة لا تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان، فيكون الرّهان على طريقة اكتشافها وتوظيفها بالإستهداء بهدي الله تعالى، والسّير في الأرض، واستقراء أحوال الأمم وعاقبتها والإعتبار بعبرها".

من جهته، استقرأ عماد الدين خليل من القرآن الكريم وجود ثلاث بوابات لهداية الإنسان: الأولى تقود إلى المستقبل البعيد، إلى يوم القيامة والبعث والحساب والجزاء، والثانية تقود إلى الوراء، حيث يحيلنا القرآن إلى الماضي لكي نعلمنا من وقائع التاريخ، والثالثة توقفنا في راهنا التاريخي، وتضعنا أمام إبداعية الله في خلق السموات والأرض وفي تسخير ما تنطوي عليه الأرض من إمكانات.

ويضيف الباحث بأنّه وعلى ما في القرآن من مساحات واسعة أعطيت للتاريخ، فهو ليس كتاب تاريخ، وإنما هو فقط يغطي من الأحداث ما يمكن القارئ المستنير من استخلاص العبرة، يقول تعالى: "قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً

لِأُولِي الْأَبْصَارِ" - "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" - "قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ".

وإن القرآن الكريم، فيما يخص فلسفة التاريخ، يحثنا على أن نبحث في القوى الدافعة والقوى الساحبة إلى الوراء، فكأن التاريخ البشري مداولة متواصلة، يرفع المستضعفين إذا أخذوا بأسباب الانتصار والتحرر من الكبر والظلم والإضطهاد، ويؤدّي بهبوط وسقوط المستكبرين بسبب ظلمهم وكبرهم. تلك هي سنة الله في خلقه والتدافع مستمر إلى يوم الحساب، ولن نجد أنفسنا أمام حالة سكونية للتاريخ البشري.

2.2 السنة كمصطلح قرآني يندرج ضمن فلسفة التاريخ

استعمل القرآن لفظ "السنة" ليشير إلى قانون قوي وراسخ أجراه العليّ الحكيم على الإنسان، لا يمكن أن يتغيّر أو يتبدّل، قانون ثابت على مستوى صلاحيّته وفاعليّته، فهو: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ"، و"سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ"، و"سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ". ومجال السنن التي تحدّث عنها القرآن الكريم هو العلاقات التي يكون ومحوها الرّسالات السّماوية، أي أنّ هذه القوانين تخصّ أنماط تعاطي النّاس وتفاعلهم مع الرّسالات الإلهيّة، وما ينتج عن ذلك من التدافع الفكري والميداني بين المؤمنين والكافرين بها. وعليه، فسنة مطّردة، ماضية فينا وفي غيرنا على امتداد الزّمان والمكان، بحيث يكون مآل الأفعال ونتائجها من جنسها: "لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" - "لَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا" - "لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا".

وقد تم استخدام كلمة "سنة" في القرآن الكريم من خلال ربطها بالخالق سبحانه، تأكيداً على قوّة ورسوخ القانون المبيّن في السياق حيث أتت هذه الكلمة، وسريانه على الجميع وفي كلّ الأماكن والأزمنة. على أنّ كلمة "سنة" جاءت مضافة أيضاً إلى

"الأولين"، وإلى "الذين خلوا من قبل"، ليس باعتبارهم واضعين لهذه السنن، بل باعتبار أن أفعالهم ونتائجها كانت مصاديق للسنن الإلهية.

ولقد أكد القرآن على ضرورة أن يتوجّه المؤمن إلى العبرة التاريخية، أي العبور من الحادثة إلى جذورها، كي لا يغفل عن وحدة السنّة التي تحكم الناس، وكي يطبّق تلك الحادثة بما يتشابه معها في راهنه التاريخي: "ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" - "قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ"

ذلك أن من ثمرات النظر في سير وتجارب الرّسل والأنبياء الكرام التعرّف على حياة هؤلاء في أنفسهم ومنهجهم في دعوة الناس، والإقتداء بهم في حسن إيمانهم وإسلامهم وعبادتهم وسلوكهم، والتأسي بهم في عظيم صبرهم على أذى أقوامهم، وعلى المشقات التي واجهتهم في الدعوة إلى الله عز وجل، وفي هذا تسليّة للمؤمنين وتثبيت للمصلحين من بعدهم. كما إن من ثمرات قراءة هذه التجارب التعرّف على السنن الإلهية في الصراع بين الحق والباطل، ذلك أن في معرفة هذه السنن إدراك لأسباب النصر والتمكين، ولأسباب الهزيمة والخسران.

يقول محمد السّلمي بهذا الصّدّد: "والتاريخ بما يحتوي من الحوادث المتشابهة، والمواقف المتماثلة يساعد على كشف هذه السنن التي هي غاية في الدقة والعدل والثبات. وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائد عظيمة، حتى لو لم نقدر تفادي حدوثها والنجاة منها؛ حيث يعطينا هذا الإدراك والمعرفة صلابة في الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث؛ فإن الذي يعلم تكون لديه بصيرة وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق". ويضيف السّلمي: "والسنّة الربّانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترى متحققة، في حين أن عمر الفرد محدود، ولذلك فقد لا

يمكنه رؤية السنة متحققة... مما قد يدفعه إلى عدم إدراك السنّة أو التكذيب بها. وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السنة الربانية واقعة وثابتة".

2.3 عرض لأهمّ السنن الإلهية من خلال استقراء القرآن الكريم

إذا كانت مشيئة الخالق سبحانه أن نحقق حسن خلافتنا في إدارة الموارد التي سخّرها لنا عزّ وجلّ على الأرض وعمارته، وإذا كان من مقتضيات هذا الأمر جملة شروط واستحقاقات، أهمّها تعاون الإنسان مع أخيه الإنسان، مصداقا لقوله تعالى: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"، فإنّ معظم السنن الإلهية الواردة في القرآن الكريم جاءت لتبيّن العقبات التي قد تحول دون تحقيق الإنسان لإرادة الله سبحانه.

وفيما يلي عرض لأهمّ السنن الإلهية، والتي لم تتعلّق في أيّ من موارد القرآنيّة بالقوانين الطبيعيّة، ولا بحركة التاريخ بمفهومه العام كما يعرفه فلاسفة التاريخ، بل جاءت جميعها لتصف قوانين تخصّ تعاطي الناس مع الرّسالات الإلهية:

- سنّة الإبتلاء والتمحيص والتمييز للناس جميعا، مؤمنهم وكافرهم: "أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" - "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا" - "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ"

- سنّة التّداول الحضاري بين مختلف الشعوب: "وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ"

- سنّة استدراج الكفار وإمهالهم ليزدادوا غيّا إلى غيهم ولإقامة الحجة عليهم، ولتحقيق شرط الإبتلاء لهم ولغيرهم: "حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا"

جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" - "وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا"

- سنة محاربة الكافرين والمجرمين والمكذّبين والأنبياء والسّائرين على نهجهم، والعمل على تطويعهم أو تصفيتهم، يقول تعالى: "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ" - "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ" - "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ". وللإشارة، فقط ورد الحثّ على السير في الأرض بصيغ مختلفة (سيروا في الأرض - أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ - أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) 10 مرّات

- سنة إهلاك المستكبرين والتمكين للمؤمنين: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ" - "إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا" - "وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ" - "وَعَادًا وَثُمُودَ (...)" - "فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ" - "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ" - "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ". ومن الشواهد أيضا على قوّة هذا القانون قوله تعالى على التّوالي في سياق حديثه عن صراع نوح وموسى ولوط وهود وصالح ومحمد (ع) مع خصومهم: "فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ" - "إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" - "فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى" - "وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" - "فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا" - "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ" - "وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ"

- السنة القاضية بأن عدم مراعاة الناس لمظاهر الشرّ يؤدي إلى شيوعه، لعلّ الناس يُراجعون أنفسهم ويواجهوا مواطن الفساد فيهم، سواء كان اجتماعيا أو اقتصاديا أو بيئيا. يعبر عن هذا القانون النصّ: "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"، وأيضا: "وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً". والظهور يقتضي وجود حالة مُغالبة، وهنا بين صلاح مختلف وجوه الحياة أو فسادها. ويبين لنا القرآن أهمّ مظاهر الفساد في مواضع كثيرة أهمّها: "كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا" - "وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ" - "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ" - "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً" - "فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ". وما سبق يعني أنّ إذاقة الله بعض أعمالنا هي نتائج مُتساوقة مع طبيعة وجنس هذه الأعمال، ولا تكون بقرارٍ تال لها

- سنة انهيار الأمم الظالمة وزوالها عند تحقّق الشروط الموضوعيّة لضعفها ثم لسقوطها: "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ" - "وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ" - "وَنِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا"

- سنة تغيير المؤمنين لأنفسهم كشرط لتغيير أحوالهم، وذلك بتزكيتها وتطهيرها من الأحقاد والأهواء والعصبيّات والمعاصي والفسوق: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" - "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ"

2.4 وقفة مع سنة تفرّق الأمم شيعًا بعد نزول العلم الإلهي

يمكن الإنطلاق في التعريف بهذه السنة من قوله سبحانه في سورة البينة: "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ

يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ"، سورة نُّفْلُ بِشأن الآية الرابعة منها قول الواحدي إنَّ "من أصعب ما في القرآن نظما وتفسيرا، وقد تخبَّط فيها الكبار من العلماء".

وبيِّن الرَّاظي وجه الإشكال في الآية الرَّابِعة من سورة البَيِّنَةِ كما يلي: "(لم يكن الذين كفروا مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)... فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا مُنْفَكِّينَ عن كفرهم عند إتيان الرسول، ثم قال بعد ذلك (وما تَفَرَّقَ...) وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول!!". وللخروج من الإشكال، اقترح ابن عاشور أنَّ "البَيِّنَةُ" الأولى تتمثَّل في مجيء المسيح (ع) إلى اليهود بالبراهين الخارقة بعد تحريفهم لدينهم، وأنَّ "البَيِّنَةُ" الثَّانِيَةِ تتمثَّل في ما جاء به الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ (ع) من القرآن الكريم لإثبات صدقه أمام تكذيب اليهود والنَّصارى لدعوته. على أنَّ هذا التخصيص لا يجد ما يعضده من سياق السُّورَةِ، والذي اتَّسم بالعموم. وفيما يلي بعض الملاحظات التي يُمكن أن تساعد على تجاوز الإشكال الذي يبدو من ظاهر آيات هذه السُّورَةِ:

- استعمال خطاب السُّورَةِ لصيغة المستقبل التي تُفيد الإستمراريَّة، والحديث عن انفكاك الكفَّار عن كفرهم وتفرَّقهم شيعا دون وجه تخصيص، والتَّأكيد على أنَّ تقسيم النَّاس عند الجزاء سيكون باعتبار حنوفهم وحُسن إيمانهم وصلاح أعمالهم، أمور تدفع باتِّجاه تأكيد تدبُّر السُّورَةِ بطريقة مختلف عن التفسير السَّائد، والذي يجعل أتباع الرِّسالة الخاتمة غير معنَّيين من خطابها، خاصَّة وأنَّنا تفرَّقنا فعليا كتفرَّق الذين من قبلنا بعد أن جاءتنا البَيِّنَةُ (القرآن الحكيم)

- تكذيب الأقوام السابقة لرسالات ربهم، واشتراطهم للإنفكاك عن دين آبائهم أن يؤتوا بالبيّنة (أي بحجج تكاد تنطق بصدق رسلهم) ليست خاصة بسياق زمكاني معيّن، بل هي إحدى السنن الكونية: "قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ" - "وَالِى ثَمُوْدَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ" - "وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ" - "سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ" - "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ" - "وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى"

- سنة التعاطي السلبي لعموم الناس مع الرسالات السماوية وتمسكهم بدينهم بالرغم مما بين أيديهم من البيّنات: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (...) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ" - "ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا" - "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا" - "أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (...) جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ" - "وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ" - "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ" - "قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" - "أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (...) أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ"

- من السنن الإلهية أيضا في مجال العقائد التفرّق شيئا بعد التوحّد حيناً من الزمن على التوحيد: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا"، يؤكد ما سبق ما نعلمه من أنّ الكتاب المقدّس يتكوّن من مجموعة كتب تُسمّى أسفاراً. ويشترك اليهود والمسيحيين فيما بينهم 39

كتابًا، يُطلق عليها اليهود اسم "التناخ" (يتكوّن من التوراة والأسفار التاريخية وكتب الأنبياء والحكمة...)، ويُسمّيها المسيحيون "العهد القديم"، فيما يُضيفون إليها 27 كتابًا آخر لتُشكّل "العهد الجديد" (وينقسم بدوره إلى أناجيل متّى ومرقس ولوقا ويوحنا "القانونية"، والرّسائل وسفر الأعمال والرؤيا...). وما سبق لا ينسجم مع تضيق وتخصيص المفسّرين لدلالات بداية سورة البيّنة

- بخصوص الرّسالة الخاتمة، والذي كانت البيّنة المُساند لصاحبها القرآن الكريم حصرا، فقد جرت سنّة الله تعالى علينا كما على الذين من قبلنا، يقول تعالى: "هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" - "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ" - "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ" - "وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ..."

- حدّرنا الله تعالى من التفرّق في الدّين بعد توحدنا برهة من الزّمن على الكتاب: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا" - "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ". كما أشار الخالق سبحانه إلى وقوعنا الحتمي في هذا التفرّق بهجراننا أداة وحدتنا "المتين"، حيث أخبرنا عزّ وجلّ أنّ رسولنا الكريم سيقول يوم القيامة: "إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا"

- يُعاضد التدبّر السابق المدخل الكرونولوجي لقراءة القرآن الكريم، حيث كانت بدايته بطلب الإنسان سبيل الإهتداء إلى "الصراط المستقيم" (الفاتحة)، بما يعني ضمنا وقوعه ابتداء في حالة من الضلال والتشتت، وتخبرنا بداية السّورة الثّالثة (البقرة) عن أنّ الكتاب الذي لا ريب فيه هم المتضمّن لأداة الهداية، ونقرأ في خاتمة القرآن الكريم حزمة من السّور التي تخبر بظهور الرّسالة (النّصر)، وتتوعّد الذين ينفخون في نيران الفتنة (سورة الحطب)، وتحتّنا على الإستمسك بعنوان النّجاة (سورة الإخلاص)، وعلى الحذر من أسباب الإنحراف (سورتَي الفلق والنّاس)

إنّ ما سبق بيانه لا يتناسب معه حصْر دلالات سورة البيّنة في سياق تاريخي معيّن، ولا حصْر المعنّيين بخطابها في اليهود والنّصارى، بل الأقرب إلى الصّواب أنّ السّورة تُبيّن لنا قانونا عامّا يسري على جميع أهل الكتاب، ونحن من ضمنهم. فقد بدأت دورة تفاعل النّاس مع الرّسالات السّماوية بمرحلة أولى اتّسمت بالتّوحيد (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)، ثمّ حصل التّفرّق في الدّين، فبعث الله سبحانه رسله لإعادة توجيههم نحو بوصلة التّوحيد (فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ)، ويتقدّم التّاريخ بطريقة تتعاقب فيه المراحل الثّالثة: إرسال الرّسل والأنبياء بالبيّنة (الرّسالة وما قد يدلّ على صدقها) - إعراض عموم النّاس عن البيّنة - انفكّك شريحة من النّاس عن شركهم أو كفرهم وظهور البيّنة - الإختلاف والتّفرّق - إرسال الرّسل والأنبياء من جديد... مع استثناء مهمّ طرأ على هذه الدّورة الدّينية بعد نزول الرّسالة الخاتمة، ألا هو قيام القرآن الكريم رسولا - بيّنة حاضراً بين النّاس وشاهداً عليهم إلى قيام السّاعة.

ومن النّصوص التي تؤكّد أنّ الإختلاف سنّة إلهيّة قوله سبحانه: "فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ (...)" فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي

الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ *
وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ * وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً
وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ"، آيات تُبَيِّنُ أَنَّ الْخَيْرِيَّةَ
وَالْمُفَاضِلَةَ مشروطة بالإستقامة واتباع الأوامر الإلهية المحفوظة في كتاب الله
المجيد، كما أنها تؤكد أَنَّ هذا القانون لا يخصّ جيلاً دون جيل، وأنّ التفاضل بين
الناس معياره عدم مُوالاة الظالمين والصّلاح.

الفصل الثاني - مقارنة الرواية لحركة التاريخ

1. فكرة انحدارية الزمن وتقهره منذ العصر النبوي

1.1 الأفضلية في القرآن الكريم لا تكون إلا بصفة فردية

إنّ معايير الأفضلية عند الله تعالى، كما يمكن استقراءها من عديد النصوص القرآنية، لن يحابي حتما الإنسان باعتبار الشروط التاريخية التي أحاطت بحياة الإنسان (دين وطائفة القوم الذي نشأ بينهم الإنسان ونهل من ثقافتهم، الحالة المادية للأسرة، القدرات الجسدية والنفسية والفكرية للإنسان...)، بل إنّها تقوم على محدّد مزاجية الصّدق والتقوى والإخلاص بمراكمة صالح الأعمال.

وبعض التفصيل، إنّ معايير تحصيل الرّضى الإلهي ستكون مرتبطة بما يبذله الإنسان من الجهد المتواصل (أي جهاده) لتطويعه قلبه على السلامة من الأهواء والأحقاد والتعصّب والحسد، وعلى الانحراف نحو الأفكار السليمة والخيرة مهما كانت مختلفة مع الموروث الثقافي، وعلى الانتصار لقضايا الحق والعدل ولو أدى ذلك إلى مواجهة شتى أصناف الظلم والإكراه والإستكبار، أي إنّ معايير الخالق المتعالي عن المحاباة هي معايير مستقلة عن التاريخ والجغرافيا.

هذه المعيارية الحفائية والمتعالية عن الظلم والمحاباة هي وحدها التي تليق مع العدالة المطلقة للخالق سبحانه، يقول تعالى: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ" - "يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ" - "فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" - "أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَفَرَ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ" - "لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"...

إنّ معيارية الحساب لا تكثرث بالشروط التي تكون خارجة عن نطاق إرادة الإنسان (السياق التاريخي والجغرافي والثقافي الذي ولد وتربّى فيه الإنسان) وتجعل مصير

الإنسان حصرا رهين جهده وعمله، هذه المعيارية تنسحب على الناس جميعا، بما في ذلك الرسل الكرام، حيث نقرأ مثلا: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ" - "فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ (...)" قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ" - "وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ" - "ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" - "قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ".

1.2 مناقشة القول بالخيرية والرضى الإلهي المطلق عمن عايشوا النبي

يمكن تلخيص فكرة جمهور علماء أهل السنة حول معيار خيرية الناس أن من صحب النبي، وراه ولو مرة من عمره، أفضل من الذي يأتي بعد، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل، لأمر منها أن لها مزية مشاهدة رسول الله، وخصوصية الذب عن حضرته ونصرته، وفضيلة السبق للإسلام والهجرة والنصرة والجهاد، ومنها أيضا ضبط وحسن فهم الصحابة للشريعة بسبب حضورهم ملاسبات تنزيلها وتفعيلها. ويستدل العلماء على قولهم السابق بمجموعة من النصوص القرآنية والروائية.

بداية، فإن الحكم بحسن إيمان أي إنسان أو كفره، أو صلاحه أو فساده، غيب لا يعلمه إلا الله سبحانه الذي "لَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا". وعليه، فليس من حق المخلوقات التجرؤ على ما اختص به الخالق سبحانه لنفسه بتزكية أنفسهم (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)، فضلا عن تزكية آلاف السابقين بمجرد إسلامهم وتشرفهم بروية النبي الكريم.

بخصوص استدلالات السلف على قولهم بالأفضلية الدائنية لمن صحبوا النبي الكريم بقوله تعالى: "لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا"، فمن الجلي أن الرضى في هذا النص لم يكن مطلقا وشاملا لجميع معاصري النبي من المسلمين، بل إن الإحتفاء الإلهي

بأهل الحُدَيْبِيَّة هو مَحْصُورٌ بموقفهم الحاسم والقاضي بالتعهد أمام النبي طوعا بالذَّب عن المجتمع المسلم في مواجهة الكبراء والظالمين، وهذا التَّكْرِيم لم يكن مفتوحا على الزَّمن إلا بقدر تمسك القائمين بالبيعة بمنهجهم وبدِينهم وبنقاء سريرتهم. يؤكِّد هذه القراءة قوله جلَّ وعلا على إثر غزوة حُنين، والتي وقعت بعد الحديبية: "وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ".

مقابل هذا الإحتفاء بالذين سبقوا بالتحرر من عقيدة الآباء والأجداد، ومن جاهدوا فداء لخالقهم ولرسوله (لا لشخص محمَّد بن عبد الله) وللمثل القيِّمة الجديدة التي آمنوا بها، فإنَّ القرآن أشار في عديد المواضع أنَّ العلاقة الاجتماعية، مهما كانت قويَّة أو قريبة، لن تغني عن الإنسان شيئا (لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا). ومن الأمثلة التي ضربها القرآن في ذلك امرأتا لوط ونوح، وأبُ إبراهيم (ع)، ومن أمثلة ذلك أيضا المنافقون الذين كانوا يقومون بالعبادات ويشاركون في المعارك في صفوف المؤمنين في العصر النَّبَوِي، على الرَّغم من أنَّهم كانوا يكيدون سرًّا للمؤمنين.

كما إنَّ من أهمِّ استدلالات أهل السنَّة لتكريمهم "الصحابه" إلى حدِّ التقديس قوله الله تعالى: "وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ"، مع أنَّ هذا النصَّ يوضِّح أنَّ من نالوا رضى الله جلَّ وعلا هم المهاجرين الأوائل والأنصار الذين استقبلوهم في المدينة وآثروهم على أنفسهم. وعليه، يكون الثناء القرآني على المهاجرين والأنصار نتيجة منطقية وموضوعية لسبقهم بالتحرر من العقائد الموروثة، وبالجهاد بأموالهم وأولادهم وأنفسهم دفاعا عن عقيدتهم ونصرةً لربِّهم ولرسوله وإخوانهم في العقيدة، وسبقهم بالأعمال الخيرة في زمن اتَّسم بسيطرة الإنغلاق والعصبية القبلية والظلم الاجتماعي.

يؤكد ما سبق عديد الآيات التي بيّنت سبب وشروط المحافظة على هذا السبق:

"لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ" - "لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ". وعليه، فإنّ اللّاحق بالجيل الأول، جيل المهاجرين والأنصار، قد تحدّد قرآنيًا بالإتباع بإحسان، وهو شرط لا يحدّده القرب الزمّني بالعصر النّبوي، ومفتوح تمامًا على الزّمن: "وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ".

وأما ما سوى ذلك من الآيات التي تعد المؤمنين بالرّضى، فهي آيات غير مخصوصة ولا محصورة في الجيل الأوّل الذي عايش النّبي الكريم، بل جاءت بصيغ عامّة ومفتوحة، لتحدّد المعايير التي على المؤمنين اعتمادها ميزانًا لمُعَايِرَةِ صلاح أعمالهم ومدى موافقتها للأوامر والنّواهي الإلهيّة، على نحو قوله تعالى: "لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ"، وقوله جلّ وعلا: "قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"...

وعليه، فإنّ العليم الحكيم إذا ما أخبرنا برضاه عن السّابقين من المهاجرين والأنصار، وعن الذي بايعوا الرّسول تحت الشّجرة، فليس مُحَابَاةً لهم، ولا تَكْرِيمًا لهم لمجرّد مُعَايِشَتِهِمْ لِنَبِيِّهِ الْخَاتَمِ، بل لأنّهم نجحوا في الإستجابة للمعايير التي حدّدها

الوحي القرآني للناس جميعا، ولأنهم جعلوا من الصراط المستقيم الذي حدّد معالمه هذا الوحي بوصلة يُنبرون به حياتهم وأعمالهم.

ومن الآيات التي يمكن استحضارها على هامش مناقشة قضية الخيرية الذاتية للمؤمنين الذي عايشوا النبي قوله تعالى: "إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (...)" وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (...)" وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (...) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ". وأول ما يلاحظ أنّ الآيات السابقة تشمل الناس من جميع الأمم السابقة واللاحقة، بدليل انفتاح خطابها، وتعلّقه بتصنيف الناس بحسب أعمالهم عند الحساب والجزاء.

من ناحية أخرى، فإنّ الناس ستنتم محاسبتهم يوم القيامة فرادى على مستوى حاصل أعمال كلّ إنسان، ولكن أيضا أشتاتا بحيث أنّ كلّ أمة سيحاسب أفرادها باعتماد معايير الرّسالة التي أنزلت إليها (كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا)، تصنيف تصنيف إلية الآيات السابقة مزيدا من الدقّة، بأن أخبرتنا أنّه سيكون في كلّ أمة سابقين، وأصحاب يمين، وأصحاب شمال. ولكن فيما ستكون النّسب من أصحاب اليمين متقاربة على امتداد الزمن، سترتفع نسبة السابقين في أجيال العصور النّبويّة عنها في ما بعدها (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)، ومن دلائل ذلك احتفاء القرآن بالحواريين من أصحاب المسيح (ع)، وبالمهاجرين والأنصار. ولكن أن تكون نسبة أصحاب الرّيادة من العصر الأوّل لكلّ رسالة أكبر من مثيلاتها في العصور المتأخّرة زمنيا عنها لا يعني انتفاء وجود أفراد سيتمكنون من اللحاق بالرّواد.

وعلى أساس ما سبق، لا يُمكن الجزم مطلقا بدخول مُعيّنٍ للجنّة، مع وجوب التسليم لخيرية عموم السابقين بالهجرة والجهاد من جيل العصر النّبوي، ويصبح التعقيب

على ذكر أصحاب الرّسول، مهما طالّت أو قصرت صُحبته له، بالجملة الخبريّة "رضي الله عنه"، إذا كان يُراد بها الدّعاء له، فهي مقبولة وتدخل ضمن التّادّب معهم، ولكن إذا كانت من باب التّركية والقول الضمنيّ اليقينيّ برضى الله عمّن وقع التّرضي عليه جرأة وتألّي على الله جلّ شأنه، ومُصادرة لحقه المُطلق - جلّ وعلا - في الإطّلاع على سرائر قلوب العباد والحُكم عليهم.

ومع ذلك، يبقى الدّعاء للمؤمنين، الأحياء منهم والأموات، من الجيل النّبوي أو ممّن وراءهم من الأجيال، بالرّضى الإلهي أو المغفرة أو الرّحمة هي دخول في صنف الذين أثنى عليهم الله سبحانه حين قال: "وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ". ولا ينبغي أن يستتشف أيّ مسلم، مهما قدّم من إقامة صلاة وإيتاء زكاة من الإستغفار وطلب العفو والرّحمة لنفسه أو لغيره.

1.3 مفهوم الصّحبة في القرآن الكريم

من عقيدة أهل السنّة حُبّ أصحاب النّبي الكريم، قال الطحاوي: "ونحبّ أصحاب رسول الله ولا نفرط في حبّ واحدٍ منهم، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم، ونبغض من يبغضهم... ولا نذكرهم إلا بخير، وحبّهم دين وإيمان وإحسان، وبُغضهم كفرٌ ونفاق وطغيان". وقال أبو زرعة: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله فاعلم أنه زنديق، وذلك أنّ رسول الله عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنّة، والجُرح بهم أولى، وهم زنادقة!!" كلام إنشائيّ حاسم وحادّ يعبر عن حالة التّدافع حول هذه المسألة بين أهل السنّة والشيعة.

وكتمهيد لبحث موجز في هذه المسألة، تجدر الإشارة إلى أنّ التاريخ ليس مجرد أحداث ميّنة، بل هي أحداث تمتد آثارها لتتجاوز عصرها، لتلعب دورا في صياغة فكر وسلوك أجيال لم تُعاصر تلك الأحداث. وإنّ نظرة نقدية لأحداث تاريخية سابقة

مرّقت كيان الأمة وشرذمت وحداتها إلى طوائف متعدّدة ومتناحرة ليس بالأمر الإختيار أو بالتurf الفكري، بل هي استحقاق يفرضه واقع تخلفنا.

وبالعودة إلى القضية المثارة هنا، فقد اعتمد علماء الحديث في تعريف الصحابي كلّ من رأى الرسول، وقرّروا بمقتضى ذلك أنّ الصحابة كلّهم عدول، لا يمكن أن يكذبوا على الرسول الكريم، على أنّهم مع ذلك لا يدّعون عصمة لهؤلاء "الصحابة". فلماذا هذا التوسيع الكبير في اختيار مفهوم الصحابي، خاصّة وأنّ الأمر يترتب عليه شهادة في أمر خطير جدّا، ألا وهو التوثيق لأحاديث للرسول الكريم التي بمقتضاه ستصبح نصّاً دينيّاً يتساوى في مرجعيته التشريعية مع كتاب الله جلّ جلاله؟

لكلمتي "الصاحب" و"الصُحْبَة" وضع لغوي واستعمال عُرفي، وهناك الاصطلاح الشرعي. ففي الوضع اللغوي تحمل الصّحبة معنى واسعا جدّا لأن اللغة تأتي بالمشارك اللفظي، وأما العُرف، فقد قيّد الصّحبة بالملازمة الطولية والقرب والحميميّة، وأمّا في كتاب الله تعالى، فالوضع اللغوي لكلمة "الصّاحب" ومشتقاتها يبدو وضع شبه محايد وواسع ومتقارب مع معناها اللّغوي، بمعنى أنه لا يقتضي بذاته لا مدحا ولا ذما، ومن أمثلة ذلك العبارات التالية: "أَصْحَابُ النَّارِ"، "أَصْحَابُ الْجَنَّةِ"، "أَصْحَابُ السَّبْتِ"، "أَصْحَابُ الْكُفْهِ"، "أَصْحَابُ الصِّرَاطِ"، "أَصْحَابُ السَّفِينَةِ"، "فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ"، "مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ"...

ويبدو أنّ سبب اختيار المحدثين التوسّع في اختيارهم لمفهوم الصّحبة مرده إجماع الرّاعيل الأوّل من المهاجرين والأنصار عن التّحديث، ذلك أنّ اختيار مفهوم أضيق لمعنى الصّحبة سيجعل علم الحديث في ورطة لسببين: الأوّل قلّة الأحاديث المنقولة عن كبار "الصحابة"، والثّاني أنّ غالبيّة الأحاديث نقلها "صحابا" لم يكونوا ضمن الدائرة المقرّبة من النّبي الكريم ولم يشهدوا معه أهمّ المحطّات الدعوية والجهادية.

كما يمكن الإجابة عن سبب اعتماد واسع لأهل السنّة والجماعة لمفهوم الصّحبة باعتمادنا قراءة تاريخية، فمّا يجدر ذكره أن أكثرية المهاجرين والأنصار انظموا إلى عليّ أثناء مواجهته لمعاوية، ويبدو أنّ هذا الأخير أحسّ بضعف موقفه باعتبار القيمة الرمزية التي يمثّلها المهاجرون والأنصار، فكان أن اهتدى لفكرة إهمال ذكر "المهاجرين" و"الأنصار" في كتبه وخطبه، وتعويضهما بمصطلح الصّحبة. ومن أمثلة ما سبق ما أخرجه البخاري عن معاوية أنّه قال: إنكم لتُصلّون صلاةً لقد صحّبنا رسول الله فما رأيناه يصلّيها، ولقد نهى عنهما، يعني الرّكعتين بعد العصر!!

من مدخل قرآنيّ، فإنّنا نعلم أنّه لا يعلم الغيب إلا الخالق جلّ وعلا، وأنّ غيب الماضي والمستقبل والماورائيات مكتوب حصراً بين دفتي المصحف الشريف، وبالتالي فإنّ أيّ ادّعاء بحُكم النّبي الكريم لصالح مجموع أصحابه بالخيريّة المطلقة هو اتّهام ضمنيّ له بمخالفة الأوامر الإلهيّة التي حدّدت وظيفته بالتبليغ والشّهادة على قومه، لا لهم، حيث نقرأ قوله جلّ وعلا: "قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ" - "وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ" - "يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ" - "وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ" - "قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ"...

من ناحية أخرى، أكّد القرآن الكريم على الطّبيعة البشريّة لمجتمع العصر الرّساليّ، وبيّن أنّ حجم الإستجابة ودرجة تحوّل هذه المجتمعات وفق القيم القرآنية تخضع للنسبيّة. ولو أخذنا عيّنة أخلاقية مجتمع القرن الأول على المستوى الفردي والجمعيّ، فإننا نجد مؤشرات قويّة على بشريّة ذلك المجتمع بكل ما يحمله ذلك من دوافع إيجابيّة أو سلبية، فيذكر لنا القرآن الكريم مثلاً مجموعة من الذين رموا المحصّنات المؤمنات، ومن الذين تركوا الرّسول قائماً في المسجد وانفضّوا للتجارة، ومن الذين آذوا الرّسول برفع الصّوت في حضرته، ومن الذين نقلوا الأنباء الكاذبة...

وعليه، فإنّ المجتمع الإسلامي في العصر النبوي لا يُمكن أن يخرج من كونه مجتمعا إنسانيا يتنازعه ما ينازع أيّ مجتمع إنساني من دوافع الخير والشرّ، والفساد والصّلاح. وقد أخبرنا القرآن الكريم أنّ الإنسان، منذ آدم (ع) وإلى قيام الساعة، سيكون في امتحان واختبار لتبيّن مدى إقباله على ربّه وانتصاره على تمرّكه حول ذاته، فهل سيحدث خرقٌ لهذه القاعدة لمجرّد الإقرار بالشّهادة في العصر النبوي؟! هل يمتلك النّبي الكريم سحرا معيّنا بحيث يتخلّص الإنسان بمجرّد النظر إليه من أدرانهِ وأحقاده وأهواءه وشهواته بطريقة نهائية تمنعه من السّقوط مستقبلا في كبائة السيئات والدّنوب؟! هل يمكن لمن تربّى عشرات السنين على منطق القوّة والعصبية واحتقار الأنوثة... أن يتحوّل إلى النقيض من ذلك بمجرّد التلقّف بالشّهادة أو حضور بعض الخطب في المسجد النبوي؟! هل يمكن أن تكون آثار التربية النبوية في الجيل الأوّل هي ذاتها من شخص لآخر؟! ألا يخبرنا أصحاب السّير أنّ الكثير من الذي سمّوا بمُسلمة الفتح لم يدخلوا مطلقا المدرسة النبوية أصلا؟...

يؤكد القراءة السّابقة ما وقع فيه أفراد من الأجيال الأولى من التدافع السياسي الذي تطوّر إلى اقتتال عنيف أدّى إلى سقوط عشرات آلاف الضحايا. وتكفي الإشارة إلى مشاركة "صحابية" في حصار الخليفة الثالث وقتله، وسقوط 10 آلاف قتيل في معركة الجمل، و 70 ألف قتيل في معركة صفّين، وتورّط الخطباء في لعن الإمام عليّ في خطب الجمعة بضغط من الأمويين (وقد أخرج مسلم قول عائشة: أمروا أن يستغفروا لأصحاب النّبي فسبّوهم)، وقتل الحسن بن علي ومالك الأشتر بالسّم، وقتل محمد بن أبي بكر وإحراق جثته في جوف حمار، وقتل الحسين في معركة كربلاء ثم اقتياد الأسيرات من أهل بيته مكبّلات بالأغلال إلى بلاط يزيد بدمشق، واغتصاب مئات النساء من سكان المدينة في موقعة الحرّة، وهدم وحرّق للكعبة الشريفة، وذبح الجعد بن درهم تحت المنبر في عيد الأضحى...

1.4 أهم الروايات الواردة في هذا الباب

- 1- عن أبي سعيد قال: لما نزلت "إذا جاء نصر الله"، قرأها رسول الله وقال: الناس حيّز وأنا وأصحابي حيّز، ولا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، فقال مروان لأبي سعيد: كذبت، وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت... فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدّثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة، فسكتا، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رأيا ذلك قالوا: صدق (الطبري وأبو داود، والحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي، وقال الألباني على شرطهما)
- 2- عن أبي سعيد وعن أبي هريرة عن النبي (ص): لا تسبّوا أصحابي، فلوا أن أحدكم أنفق مثل أخذ ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نُصيفه (متفق عليه)
- 3- عن ابن عباس أنه قال: لا تسبّوا أصحاب محمد، فلمقام أحدهم ساعة خير من عبادة أحدكم أربعين سنة، وبلغ: من عبادة أحدكم عمره (الطحاوي، وصحّحه الأرناؤوط والألباني، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عمر بإسناد حسنه الألباني)
- 4- عن أبي هريرة أنّ عن النبي (ص): والذي نفس محمد بيده، ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لأن يراني أحبّ إليه من أهله وماله معهم (مسلم)
- 5- عن ابن مسعود أنه قال: إنّ الله تعالى نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالاته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيّه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئ (أحمد والبغوي، قال ابن تيمية: معروف، وثبته ابن القيم، ووثقه الهيثمي، وحسنه ابن حجر والوادعي والأرناؤوط والألباني، وصحّحه شاكر)
- 6- عن أبي موسى: صلّينا المغرب مع رسول الله، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلى معه العشاء، فجلسنا، فخرج علينا، فقال: ما زلتم ها هنا؟... أحسنتم، فرفع رأسه إلى

السماء، وكان كثيرا مما يرفع رأسه إلى السمااء!! فقال: النجوم أمانة للسمااء، فإذا ذهبت النجوم أتى السمااء ما توعده، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون (مسلم)

7- عن عائشة أنها قالت: سأل رجل النبي (ص): أي الناس خير؟ قال: القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث (مسلم)

8- عن عمران بن حصين عن النبي (ص): إن خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران: فلا أدري أقال رسول الله بعد قرنه، مرتين أو ثلاثة، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن (متفق عليه)

9- عن أبي هريرة عن النبي (ص): خير أمتي القرن الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، والله أعلم أذكر الثالث أم لا، ثم يخلف قوم يحبون السمانة (أي الذين يتوسعون في المآكل التي هي أسباب السمن)، يشهدون قبل أن يستشهدوا (مسلم)

10- عن ابن مسعود عن النبي (ص): خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجي قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته (متفق عليه)

11- عن جابر بن سمرة: خطبنا عمر بالجابية، فقال: يا أيها الناس، إني قمت فيكم كمقام رسول الله فينا، فقال: أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم، ثم يفسو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان (ابن حبان والطبراني، وصححه ابن حجر وابن كثير والمنائوي والوادعي والأرنؤوط وشاكر، وقال الألباني على شرطهما)، وأخرج نحوه الترمذي عن ابن عمر بإسناد صححه الألباني بلفظ: خطبنا عمر بالجابية، فقال: يا أيها الناس... فقال: أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم... عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد

12- عن أبي هريرة قال: قيل للنبي (ص): أي الناس خير؟ قال: أنا ومن معي، فقليل له: ثم مَنْ؟ قال: ثم الذين على الأثر، فقليل له: ثم مَنْ؟ قال: ثم الذين على الأثر، فقليل له: ثم مَنْ؟ فكأنه رفض مَنْ بقي (أحمد، جوده الأرئوط، وصححه شاكر)

13- عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص): يأتي على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ (جماعة) من الناس، فيقولون: فيكم من صحب النبي؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئامٌ من الناس، فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صحب صاحب أصحاب النبي؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم، ثم يكون البعث الرابع، فيقال: انظروا هل ترون فيهم أحداً رأى من رأى أحداً رأى أصحاب النبي؟ فيوجد الرجل، فيُفتح لهم به (متفق عليه)

14- عن الزبير بن عدي: أتينا أنس فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، سمعته من نبيكم (البخاري)

15- عن عبد الرحمن بن عبد ربّ الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو جالس في ظلّ الكعبة... فقال: كنا مع رسول الله في سفر، فنزلنا منزلاً... إذ نادى منادي رسول الله: الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله، فقال: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم، وإنّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمر تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضها، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحبّ أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحبّ أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما، فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر، فدنوت منه فقلت: أنشدك الله، أنت

سمعتَ هذا من رسول الله؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه، وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ونقتل أنفسنا... فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله واغصه في معصية الله (مسلم)

16- عن حذيفة قال: حدثنا رسول الله حديثين، رأيْتُ أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أنَّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علّموا من القرآن، ثم علّموا من السنّة، وحدثنا عن رفعها، قال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكّت، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى فيها أثرها مثل أثر المجل... ويصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال إنَّ في بني فلان رجلا أمينًا، ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده!! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولقد أتى عليّ زمان ولا أبالي أيكم بايعتُ، لئن كان مسلما ردّه عليّ الإسلام، وإن كان نصرانيا ردّه عليّ ساعيه، وأما اليوم فما كنتُ أباع إلا فلانا وفلانا (متفق عليه)

17- عن ثوبان عن النبي (ص): يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل (أي ما يحمله السيل من وسخ)، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم (أبو داود وأحمد، جوده البيهقي وصححه الألباني)

18 عن أبي هريرة عن النبي (ص): يتقارب الزمان، وينقص العلم، ويلقى الشخ، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، قالوا: أيما هو؟ قال: القتل القتل (متفق عليه)

19- عن أبي أمامة عن النبي (ص): لتنتقض عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبّث الناس بالتي تليها، وأولهنّ نقضا الحكم، وآخرهنّ الصلاة (أحمد والطبراني، وابن حبان والحاكم وصحّاه، وصححه الهيثمي والألباني)

20- عن أنس عن النبي: لا تقوم الساعة حتّى لا يُقال في الأرض الله الله (مسلم)

21- عن مرداس الأسلمي عن النبي (ص): يذهب الصالحون، الأوّل فالأوّل، ويبقى

حفالة (حثة) كحفالة الشعير، أو التمر، لا يُباليهم الله بالة (البخاري)

22- عن أبي هريرة عن النبي (ص): بينما أنا نائم إذا زُمرّة، حتى إذا عرفتهم خرج

رجل من بيني وبينهم، فقال: هلمّ، فقلت: أين؟ قال: إلى النار... فلا أراه يخلص منهم

إلا مثل همل النعم (البخاري)

23- عن ابن عمر قال: قال لي رسول الله: يا عبد الله بن عمر، كيف بك إذا بقيت في

حفلة من الناس بهذا (البخاري)

24- عن ابن مسعود عن النبي (ص): إنّ الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلاً، وما بقي

منها إلا القليل كالثغب، شرب صفوه وبقي كدره (الحاكم، وحسنه الألباني)

25- عن زيد بن ثابت عن النبي (ص): أوّل ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما

يبقى من دينهم الصلاة، وربّ مُصلّ لا خلاق له عند الله تعالى (الطبراني، والبيهقي

عن عُمر، وحسنه الألباني، وصحّحه السفاريني)

26- عن ابن شماس عن عبد الله بن عمرو قال: لا تقوم الساعة إلا على شرار

الخلق، هم شرّ من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا ردّه عليهم، فبينما هم على

ذلك أقبل عقبة بن عامر... وأما أنا فسمعت رسول الله يقول: لا تزال عصابة من

أمّتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوّهم، لا يضرّهم من خالفهم، حتى تأتيهم

الساعة وهم على ذلك... ثم يبعث الله ريحا كريح المسك... فلا تتركُ نفساً في قلبه

مثقلاً حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، عليهم تقوم الساعة (مسلم)

27- عن أنس عن النبي (ص): مثل أمّتي مثل المطر، لا يدرى أوّله خير أم آخره

(الترمذي، وقال الألباني: حسن صحيح، وصحّحه ابن حبان من حديث عمار)

- 28- عن حذيفة عن النَّبي (ص): تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريَّة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة... قال حبيب: فلما قام عمر بن عبد العزيز... قلت له: إني أرجو أن يكون أمير المؤمنين بعد الملك العاضّ والجبريَّة (أحمد والطيالسي، حسَّنه الأرنؤوط، وصحَّحه العراقي والألباني)
- 29- عن أبي جمعة قال: تغدِّينا مع رسول الله ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله، أحدٌ منا خيرٌ منّا؟ أسلمنا وجاهدنا معك، قال: نعم، قوم يكونون من بعدكم، يؤمنون بي ولم يروني (الدارمي وأبو يعلى وأحمد، والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي، وحسَّنه ابن حجر، وصحَّحه الألباني)
- 30- عن أبي أمامة عن النَّبي (ص): طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات (أحمد والطبراني، وثقه الهيثمي وصحَّحه الألباني لشواهد)
- 31- عن عبد الرحمن بن جبير عن النَّبي (ص) قال: ليدركنَّ المسيح أقواما، إنهم لمثلکم أو خيرٌ ثلاثا، ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها (ابن أبي شيبه، ضعَّفه الألباني، وحسَّنه ابن حجر والقسطلاني)
- 32- عن عبد الله ابن عمرو عن النَّبي (ص): في كلِّ قرن من أمتي سابقون (أبو نعيم، وحسَّنه الألباني)
- 33- عن أبي أمامة عن النَّبي (ص): ولا يزال الإسلام يزيد ويُفص الشُّرك وأهله حتَّى تسير المِرْأتان لا تخشيان إلا جورًا (الطبراني، وصحَّحه الألباني)
- 34- عن معاوية بن أبي سفيان عن النَّبي (ص): ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتَّى تقوم الساعة، أو حتَّى يأتي أمر الله (البخاري، ومسلم مختصرا)

35- عن ثوبان عن النَّبي (ص): لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك (مسلم)

36- عن أبي هريرة عن النَّبي (ص): بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا، فطوبى للغرباء (مسلم)، وأخرج مسلم نحوه عن ابن عمر، وزاد فيه: وهو يأرز بين المسجدين كما تآرز الحية في جحرها

37- عن ابن عمرو: كنتُ عند رسول الله يوما وطلعت الشمس، فقال: يأتي قوم يوم القيامة نورهم كنور الشمس، قال أبو بكر: نحن هم يا رسول الله؟ قال: لا، ولكم خير كثير، ولكنهم الفقراء المهاجرون الذين يُحشرون من أقطار الأرض... طوبى للغرباء... قيل: ومن الغرباء؟ قال: ناسٌ صالحون قليل في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممَّن يطيعهم (الطبراني، قال المنذري والهيثمي: أحد إسنادي رواه رواة الصحيح، وأخرج أحمد أوله بإسناد صحَّحه الألباني لغيره وصحَّحه شاكر)

1.5 تعقيبات واستشكالات عامّة

أول ما نلاحظه هو أنّ مجموعة الروايات الأولى (1 - 25) تختلف إلى حدّ التناقض عمّا سواها، إذ تقول الأولى بفكرة التدهور التاريخي التدريجي على مستوى خيريّة وإيمان المؤمنين، خلافاً لبقية لفكرة الروايات، وهو اختلاف يُهدّد مصداقية جميع هذه الروايات، بحكم أنّ قوّة أيّة فكرة ترتبط بمدى انسجام جميع عناصرها.

كذلك، فإنّ العديد من الروايات (وخاصّة 1 - 3 و 14 - 16) تتخلّلها إشارات قويّة تُوحى بارتباطها بالشأن السياسي، لاسيما ما أعقب أحداث "الفتنة الكبرى" من تدافع طائفيّ بين أهل السنة والشيعة. وهذه الإشارات تُحيلنا إلى إقرار علماء الحديث بأنّ أول سبب للوضع كان بحث السلطة السياسية الأموية ثمّ العباسية عن مسوِّغ ديني يبرّرون به استئثارهم بالأمر، ويسندون به أركان ملّكهم، ويدجّنون به رعيّتهم.

الروايات 4 - 6 تقول أيضا بالخيرية الذاتية للمؤمنين الذين رأوا النبي الكريم، نظرة سطحية تغفل عما أخبرنا به الله سبحانه من وجود حركة قوية للمنافقين في العصر النبوي، وتقول بمعرفة النبي للغيب المستقبلي خلافا لمنطوق القرآن، وتقفز على المعايير القرآنية التي جعلت الجزاء من جنس العمل بغض النظر عن معيار الزمان والمكان، وتدعي بقيام الصحابة أوصياء على الدين بعد النبي الكريم، فيما يبدو وكأنه رد من أهل السنة على الشيعة الذين يقولون بعصمة ووصاية آل البيت...

إذا كانت الروايات السابقة احتفت بمعاصري النبي وقالت بخيرية مجموعهم بطريقة آلية، فإن ما بعدها من الروايات (7 - 13) تزعم الإنحدار في خيرية المؤمنين بقدر بعدهم الزمني عن العصر النبوي، بل يربط الخيرية في القرون الأولى.

وقد اختلف العلماء حول ماهية ومقدار "القرن"، فقيل هو الجيل، أي الطبقة من الناس المجتمعين في عصر واحد، وقيل هو يعادل 10 سنوات، وقيل 20 سنة... وقيل 120 سنة!! كما أنهم اختلفوا حول الأفضلية المقصودة من هذه الروايات، فقيل هي حاصلة لأفراد معينين من القرن وليست لمجموعهم، وقيل بل هي لمجموع أفراد القرن... كما أنه من الملفت طريقة احتفاء الرواية 13 بالقرون الأولى، حيث جعلت مجرد وجود أفراد من الجيش المسلم ممن رأى الرسول كفيلا بانتصار المسلمين على أعدائهم، برغم أن القرآن أخبرنا أن هزيمة المسلمين في أحد تحت إمرة النبي (ع)!!

تجدر الإشارة في البداية إلى أن كلمة "قرن" ومشتقاتها لم تأتي في القرآن للكريم إلا في سياق الحديث عن فرد أو مجموعة أفرادٍ أعرضوا عن رسالات ربهم وعصوا الله ورسوله، على نحو قوله سبحانه: "وَعَادَا وَتَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا" - "وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ" - "وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ".

بالإضافة إلى ما سبق، فقد رأى أحد المهتمين بهذه المسألة أنّ كلمة "قرن" تدلّ في القرآن الكريم على مركز القوّة من الشيء، ومنه سمّي قرن الخروف أو الثور، لأنّه يمثّل مركز سلاحه وقوّته. وعليه، فيكون المراد من قوله تعالى مثلاً: "أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ"، أي كم أهلكنا من الأمم من ذوي القوّة والباس. يعاضد هذا الفهم استعمال القرآن لكلمة "مُقرّن" لمن يقع تحت الهيمنة من الناس يوم القيامة: "وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ"، وأيضاً إخضاع الإنسان للدوابّ نتيجة تسخير الخالق سبحانه لظهورها: "وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقَرَّنِينَ". وعليه، فإنّه يصعب احتمال استعمال الرّسول لكلمة "قرن" أو "قرون" في سياق الحديث عن أناس خيّرين، لتشبّعه بالثقافة القرآنية.

ولقد أدّى احتفاء أهل السنّة (دون الشّيعة) بالقرون الأولى إلى تأسيس سلطة استدلالية لأفعال وأقوال "الصحابه والتابعين وتابعي التابعين" بلغت مرتبة قريبة من العصمة، فصار لا يستقيم فهم الكتاب إلا بفهم السلف، ولا إضافة قول لم يُنقل عن السلف، مذهب من شأنه أنّه عطّل عمل العقل المأمور بالتفكّر والتدبّر والإستباط والتأويل، ومنهجية أغلقت دلالات النص القرآني المفتوح بحدود العصر النبوي وعصر الخلافة الرّاشدة، ولم تترك مجالاً للتفاعل الحيّ والمثمر مع الإشكاليات المستجدة.

ويعقّب أحد المفكرين على هذه القضية بالقول بأنّ "التأثير الحتمي للأخذ بالروايات التي توحى بتدهور الخيرية يمكن أن يؤدي بالناس إلى اليأس من بذل الجهد في وقف حالات الإنحطاط والتدهور، ما دام أنّ كلّ قرن أسوء من الذي قبله... بينما المعنى القرآني يؤكد أنّ فضلاء الناس سيستمرّ وجودهم في الحياة بغض النظر عن تعاقب الأزمان... ولذلك كان لسيادة المعنى السائد المأخوذ من الحديث الأثر الأكبر في تقديس عصر الصحابة وأهله واليأس من تغيير أنفسنا وواقعنا المزري، الصحابة حسب نصّ القرآن هم إخواننا الذين سبقونا في الإيمان ليس إلا".

وترسّخ الروايات التالية (17 - 25) فكرة انحدار منسوب الإسلام والإيمان والأمانة والخير في الناس بتقادم الزّمان، باستعمال صياغة جليّة لا يدع مجالاً لإنكار إنكار هذه الفكرة الروائيّة. مع الإشارة إلى الكثير من عناصر الغرابة والإستشكالات في الروايات السّابقة، والتي "يبيّث" فيها النّبي - بزعمهم - أصحابه بما سيقع مستقبلاً من ردّة معظمهم، وقتال بعضهم بعضاً، وهوانهم على العدو، وعدم مبالاة الله سبحانه بهم، روايات من الواضح أنّها تعبّر عمّا اكتنف العقل المسلم من الإحباط واليأس جرّاء الإقتتال العظيم الذي وقع بين المسلمين منذ قتل الخليفة الثالث، كما أنّها تعبّر عن حاجته إلى تفسير ديني لهذه الحالة التي استمرّت على مدى سنوات طوال.

بقية الروايات تبدو مخالفة لفكرة التّدهور التاريخي للخيريّة، برغم اضطراب بعضها بخصوص هذه المسألة قول إحداها الشيء وضده (26 و 27)، واعتماد غيرها على الفلسفة الجبريّة لتبرير الواقع السياسي (28)، وتفضيل النّبي الكريم لمن آمنوا به ولم يروّاه على من صحبه وجاهد معه (29 - 31)، والقول باستقامة أمر الأمّة (34) أو بظهور جزء منها على الحق (35) إلى قيام السّاعة، مع ضبابية مفهوم الأمّة والإستقامة والظهور، ومع تكذيب التاريخ والواقع لأقوال الرّواة.

ويمكن اختتام هذه التّعقيبات بوقفه مع فكرة عودة الإسلام غريباً كما بدأ (36 و 37)، والتي تحمل أكثر من إشكال، إذ نعلم أنّ "الدّين عند الله الإسلام"، وأنّ إبراهيم وبقية الرّسل الكرام كانوا أصلاً مسلمين، وأنّ الله تعالى "أرسل رسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّ"، كما نعلم أنّ الله سبحانه حقّق وعده بإظهار دينه، من خلال حفظ رسالته الخاتمة المتّسمة بعالميّتها، وتناسبها مع حاجة الإنسان وطبيعته، وهيمنتها على ما سواها من نسخ الديانات السّماويّة المحرّفة والفلسفات الأرضيّة، ومن خلال انفتاح صياغتها لتناسبها مع مستوى التطوّر الحضاري البشري...

ويبدو لي أنّ هذه الفكرة وضعها أهل الحديث في بداية العصر العباسي، حين أحسّوا بضعفهم و"غربتهم" في فترة زمنيّة سيطر عليها المعتزلة. فكان من ضمن الأسلحة التي اعتمدها هؤلاء (وأكثرهم فقراء يتنقلون بين مختلف الأصقاع الإسلامية لجمع ما يُروى عن النبي الكريم) للانتصار لأنفسهم ولمنهجيتهم صنع نبوءة نبويّة يوحون بها بصلاح مذهبهم أمام المتكلمين.

2. فكرة "الفرقة الناجية" وافتراق الأمة بين الآية والرواية

2.1 عرضُ فكرة "الفرقة الناجية" على القرآن الكريم

تلجأ عادة مختلف الطوائف لمقولة الفرقة الناجية لإيهام أفرادها وخصومها بأنّها تحتكر النّجاة لنفسها من دون غيرها، فكرة يمكن الردّ عليها من عدّة وجوه، أولها أنّه لا مجال في المنظومة الجزائية القرآنيّة للنّجاة باعتبار الانتماء لملة أو طائفة أو مذهب معيّن، وأنّ الجزاء لا يكون إلا فرديّاً.

كذلك، فإنّ الخالق سبحانه كذب أيّ ادّعاء بالنّجاة باعتبار الانتماء لجماعة دينيّة معيّنة حين قال: "وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ" - "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ" - "لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ"، ويحكي لنا الله تعالى عن بني إسرائيل الذين خصّهم بعدد كبير من الرّسل والأنبياء الكرام: "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ".

وإذا كان الرواية قد حدثنا عن تفرّق المسلمين باعتباره حدثاً مستقبلياً، وتورّطت في تحديد عدد هذه الفرق، وفي القول باحتكار إحداها دون غيرها للهداية والنّجاة دون غيرها، هي الأكثر عدداً من المنتسبين إليها، فإنّ القرآن الكريم تناول التفرّق بين أصحاب الدّين الواحد أيضاً، ولكنّه قارب هذه المسألة بشمول وعمق، وتجاوز إقرار هذه السنّة إلى تعليلنا أسباب الوحدة ومعايير النّجاة.

وفي هذا الإطار، فلقد حدّر الله تعالى المؤمنين في العصر النبوي - والذين من ورائهم - من الانقلاب على الأعقاب بمجرد وفاة نبيّهم الكريم حيث قال جلّ وعلا: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟" ألم يُحدّرهم من تفرّق يكون بمثابة الشّرك به سبحانه في قوله: "وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا"، وقوله "إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ". كما أنّ العليم الحكيم بيّن لعباده المؤمنين أنّ الإلتحاد بالكتاب هو الضّمانة لوحدهم وهدايتهم وخيريتهم، حيث قال عزّ وجلّ: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا" - "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ" - "وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيَا بَيْنَهُمْ (...) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ..."

وإذا كان لابدّ من تحديد المجموعة الفائزة بالجنة يوم الحساب، فسنجد أنّ الفئة أو الفرقة النّاجية هي التي تضمّ كلّ إنسان نجح في تجسيد إيمانه بالله تعالى بمراعاة الأعمال الصّالحة الخيرة واجتناب الأعمال السيّئة والفسادة، وذلك مصداق قوله تعالى مثلاً: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (...) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ".

كما أن من الآيات التي تعاضد ما سبق: "إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ" - "الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ" - "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ"، آية أخيرة حاسمة في أن الخيرية ليست مشروطة بزمان مُعَيَّن.

ويمكننا أن نتحسَّس خصائص الأفراد المنتمين للفرقة الناجية من خلال ملاحظة أن الله تعالى خصَّص 16 آية لذكر من يُحِبُّ و16 آية أخرى لذكر من لا يُحِبُّ، حيث يقول لنا المولى سبحانه بأنه يُحِبُّ "الْمُحْسِنِينَ" (5 مرّات)، و"الْمُتَّقِينَ" (3 مرّات)، و"الْمُقْسِطِينَ" (3 مرّات)، و"الْمُطَهِّرِينَ"، و"التَّوَّابِينَ"، و"الصَّابِرِينَ"، و"الْمُتَوَكِّلِينَ"، و"الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا"، ولكنّه، في المقابل، لا يحبُّ "الْمُعْتَدِينَ" (مرّتين)، ولا "الْمُفْسِدِينَ" (مرّتين)، ولا "الظَّالِمِينَ" (مرّتين)، ولا "كُلَّ مُخْتَلٍ فَخُورٍ" (3 مرّات)، ولا "الكَافِرِينَ"، ولا "كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ"، ولا "الْمُسْرِفِينَ"، ولا "الْفَرَجِينَ"، ولا "الْخَائِنِينَ"، ولا يُحِبُّ "كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ"، ولا "مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا".

هؤلاء هم الذين سيكونون من الفائزين يوم القيامة، الذين راكموا الأعمال الخيرة طوال حياتهم، وابتعدوا عن سيئاتها، وسارعوا إلى التوبة من قريب كلّما أخطئوا، شروط لا تعرف حدود الإنتماء الديني أو الطائفي أو المذهبي، يقول تعالى: "لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ".

2.2 أهم الروايات الواردة في هذا الباب

1- عن أبي هريرة عن النبي (ص): افترقت اليهود على إحدى - أو ثنتين - وسبعين فرقةً، وتفرقت النصارى على إحدى - أو ثنتين - وسبعين فرقةً، وتفرق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقةً (أبو داود، ونحوه ابن ماجه وأحمد وابن حبان، والترمذي وصحّحه، والحاكم وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني)

2- عن ابن عمرو عن النبي (ص): ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل... وإنّ بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملةً، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملةً، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي (الترمذي وحسنه، ضعّفه ابن العربي وغيره، وحسنه الألباني)

3- عن معاوية بن أبي سفيان قال: قام فينا رسول الله فقال: ألا إنّ من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملةً، وإنّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة (أبو داود وأحمد والطبراني والدارمي والحاكم، ضعّفه الشوكاني، وقال المنذري صحيح أو حسن، وحسنه ابن كثير والوادعي، وصحّحه الإشبيلي والألباني)

4- عن عوف بن مالك عن النبي (ص): افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقةً، فأحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقةً، واحدة في الجنة وثلثان وسبعون في النار، قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: الجماعة (ابن ماجه وابن أبي عاصم، قال ابن كثير: إسناده لا بأس به، وجوّده العراقي، ووثّقه السخاوي، وصحّحه الألباني)

5- عن عبد الله بن لحيّ قال: حجّجنا مع معاوية، فلما قدمنا مكة قام حين صلّى صلاة الظهر، فقال: إنّ رسول الله قال: إنّ أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين

وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمّتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله، والله يا معشر العرب، لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به (أبو داود وأحمد، والحاكم وقال: أسانيد تقام بها الحجة ووافقه الذهبي، وجوده العراقي، وحسنه ابن حجر والأرنؤوط، وأشار شاكر إلى صحته، وصححه الألباني لغيره)

6- عن أبي غالب قال: كنتُ بدمشق زمن عبد الملك، فأتني برؤوس الخوارج، فَنُصِبَت على أعواد... فإذا أبو أمامة عندها، فدنوت منه، فنظرت إلى الأعواد فقال: كلابُ النار... شرّ قتلى تحت أديم السماء ومن قتلوه خير قتلى تحت أديم السماء... ثم استبكي، قلتُ: يا أبا أمامة، ما يُبكيك؟ قال: كانوا على ديننا... قلتُ: أشيئا تقوله برأيك أم شيئا سمعته من رسول الله؟ قال: إني لو لم أسمعُه من رسول الله المرّة أو مرتين أو ثلاثا إلى السبع ما حدّثتكموه... قال (النبي): اختلف اليهود على إحدى وسبعين فرقة، سبعون فرقة في النار وواحدة في الجنة، واختلف النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، إحدى وسبعون فرقة في النار وواحدة في الجنة، وتختلف هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون فرقة في النار وواحدة في الجنة، فقلنا: انعتهم لنا، قال: السّواد الأعظم (الطبراني، ووثق رجاله الهيثمي)

2.3 تعقيبات واستشكالات

تجدر الإشارة في البداية إلى أنّ الشّيخان لم يخرجوا هذا الحديث المشهور، والذي يفترض معرفتهما به، ما يعني تحرّج الكثير من الرّجال الذين هم أهل ثقة لديهما من نقله. كما أنّه من المفيد الإشارة إلى أنّه لا يوجد تصنيف للفرق داخل اليهودية والمسيحية يُحدّد عددها إلى ثنتين وسبعين، هذا فضلا عن استحالة تحديد عدد مختلف الفرق في جميع الديانات.

ولقد دفع القول "النَّبوي" بتفرّق المسلمين إلى 73 طائفة العلماء إلى العمل على تصديقه بتحديد قوائم هذه الملل والنحل المختلفة، وهي بحوث عقيمة لاستحالة ذلك عمليًا، بسبب اختلاف طبيعة ومستويات هذا التعدّد. فعلى سبيل المثال، ينقسم المسلمون على المستوى العقدي إلى معتزلة وأشاعرة وماتريديّة وسلفية وباطنة وظاهريّة وصوفيّة ومرجئة وجهمية وجبريّة... وينقسمون على المستوى الفقهي إلى مالكيّة وشافعيّة وحنفيّة وحنابلة وإباضيّة وزيدية وجعفريّة وإسماعيليّة... وينقسمون على المستوى السياسي إلى نواصب وروافض وخوارج، هذا دون الأخذ بعين الاعتبار عديد الفرق التي ظهرت حديثًا، من إسلام تقدّمي وحدائي وقرآني...

وللخروج من هذا المأزق، اقترح بعض أهل العلم أنّ المراد بالأمة المتفرّقة أمة الدعوة لا أمة الإجابة، وهو تأويل غير مقبول. ففضلاً عن تفرّق أمّتنا الفعلي، فإنّ الروايات السابقة تقارن الأمة المتفرّقة باليهود والنصارى، ومعلوم أنّ اليهود والنصارى هم من أمة الدعوة، لا الإجابة.

وفي الواقع، فلقد نجح الرّسول الكريم بفضل تفعيل النصّ القرآني في ضرب أسس النّظام القبلي القائم على الشرك والعصبيّة والعنصريّة، ولكن مع إطلالة الفرقة السياسية، وبسبب بحث السّلطان الأموي والعباسي عن نصوص دينيّة تخدم مشاريعه، وقع فتح الباب أمام الإضافة على نصّ القرآن المتعالي على التّحريف، فانّقل الاختلاف من ساحة السياسة إلى ساحة الدّين، وبذلك تمّ هدم أسس الإعتصام والتّوحد. فتفرّق المسلمون شيعة كثيرة، تدّعي كلّ واحدة منها أنّها هي التي ورثت الدّين الصّافي البكر كما نزل على نبيّنا الكريم، فيما لسان مقالها وحالها ينطق بأنّ الرّسالة في اعتبارهم يتداخل في مضامينها السماوي (القرآن) والبشري (السنة).

وبالعودة إلى الروايات السابقة، فإنّ مضامينها تثير العديد من وجوه الغرابة والإستشكال. ومن ذلك مثلاً قول بعضها بأنّ القول بأنّ جميع الفرق ما عدا

"الجماعة"!! قول هو بمثابة السلاح العقائدي الذي تمت صناعته وتوفيره للسلطين وللمتعضبين لتأكيد احتكارهم للهداية، ولإدانة خصومهم والحكم عليهم بالضلال والكفر (كلها في النار إلا واحدة). وإنه لمن المستحيل أن يكون قائل هذا الكلام، هذا السيف المسلط على المخالف، هو نفسه من تشرب آيات الكتاب التي ترفض فكرة الوصاية والإكراه على المعتقد والحكم الشمولي على المخالف في الفكرة.

وفي هذا السياق، وفي حال صدقنا القول بوجود فرقة ناجية، فيمكن التساؤل حينها ونحن نقرأ قول الله تعالى "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ": هل المقصود بهذه الأمة أهل السنة والجماع" أم الشيعة أم المعتزلة؟... أم هل هي الفرقة الأغلبية من حيث عدد المنتمين إليها؟ وهل عندما يرفع الطائفيون والمتمذهبون سلاح "إجماع الأمة" في وجه المخالف لهم، أليس هم يقصدون عملياً إجماع الطائفة التي ينتمون إليها، والذي لم يتشكل في الواقع إلا نتيجة عوامل تاريخية، بعد عشرات السنين من وفاة النبي (ص)؟

ويمكن التساؤل أيضاً: هل كان يُمكن لنبي كريم وصفه ربّه سبحانه بقوله: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" أن يُخبر أُمَّته أن غالبية الفرق منها في النار، أي أن مصير المؤمنين في الآخرة هو رهين عامل خارج عن إرادتهم، أي عامل البيئة الثقافية للمجتمع الذي نشؤوا فيه!! ثم كيف لنبي الكريم أن يترك لأُمَّته سبباً للفرقة والإقصاء المتبادل والنّهائي!! وكيف يتوعد من وراءه من المؤمنين بالنار إذا لم ينحازوا إلى "الجماعة" دون أي يبين لهم بوضوح لا لبس فيه المعايير والسمات التي نتعرف بها على "الجماعة"!!؟

وأسأل في سياق متصل: جاء في وصف الفرقة الناجية أنها "الجماعة"، فلا ذكر لاتباع القرآن الكريم، ولا ذكر لثنائية الإيمان والعمل الصالح، ولا لثنائية إقام الصلاة

وإيتاء الزكاة... بل لمصطلحات مشحونة بالطائفية (ما أنا عليه وأصحابي) ونتائج التدافع السياسي الكبرى (السود الأعظم)!!

كذلك، فلو كان المقصود بالجماعة كثرة العدد، فذلك مفهوم إشكالي، لأنه قد تكون جماعة من المسلمين أكثر عددا ونسلا من غيرها من الفرق الأخرى، فيكون بهذا الحق معهم، ثم لا يلبث أن يأتي عليهم زمان تتقلب فيه الآية وتصبح جماعة أخرى هي الأكثر عددا ونسلا، فهل ينتقل الحق بذلك معها؟ مع أن التاريخ علمنا أن "الجماعة" عادة ما يصنعها المنتصرون، ومع الإضافة أن أتباع الأكثرية لم يرد في كتاب الله تعالى إلا على سبيل الذم. ويبدو أن الهدف من فكرة الجماعة والإجماع كان الدفع بالسود من المؤمنين إلى الإستسلام للخط السائد وإضفاء المشروعية عليه، وهو خط من اختراع السياسة التي استخدمت الإجماع كسلاح يتم إشهاره في وجه المناوئين والرأي الآخر، وعلى أساسه تم تصفية الاتجاهات المخالفة وعزلها.

الخاتمة

عادةً، وبمجرد استقرار معرفة معيّنة داخل دائرة النصّ الدينيّ المعتبر لدينا، تتحصّل هذه المعرفة على نوع من الحصانة التي تضمن لها البقاء والترسخ والثبات، وتُعفيها من العرض على التّمحيص، وخاصةً إذا كانت هذه المعرفة غيبيةً، لا يُمكن التّثبت من تفاصيلها، أو إذا كانت تحمل في طيّاتها ما نعتبره تكريمًا للذّات الإلهية أو لرسوله الكريم. ولكن بمجرد عرض هذه المعارف على ميزان نصّ ديني ذي مصداقية، أو على ميزان المنطق، أو المعطيات الدّقيقة في مجالات العلوم الطّبيعية أو التّجريبية أو الإنسانيّة، فإنّ هذه المعارف تنهال.

وخلال هذا العمل، حاولت عرض أهمّ ما وردنا من روايات في المُدونة الحديثيّة متعلّقة بالتّاريخ، بعد تصنيفها بطريقة موضوعيّة، ومن ثمّ عرضها على ميزان النّقد، باعتماد ما يتلائم مع مضامينها من الأدوات المعرفيّة.

بالنسبة للمحور الأوّل الذي يتعلّق بالصّورة التي كوّنها الرّواة عن التّاريخ، فقد انطلقت ممّا نجده في القرآن الكريم من دعوته إلى السّير في الأرض، واستنتاج التاريخ، واستخراج القوانين التاريخيّة والإجتماعيّة منها، من أجل توظيف هذه السّنن لتوفير أسباب حسن أداء مهمّة الخلافة، وما تقتضيه هذه الفريضة من تحقيق كرامة وحرية ورقيّ الإنسان، وحسن التّعامل مع بيئتنا الطّبيعية.

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة "سنّة" للحديث عن قانون راسخ يخصّ أنماط تعاطي النّاس مع الرّسالات الإلهيّة، وما ينتج عن ذلك من التّدافع الفكري والميداني بين المؤمنين والكافرين بها. ومن أهمّ السّنن الإلهيّة التي يمكن استقراءها من النصّ القرآني: سنّة الإبتلاء والتّمحيص، وسنّة التّفريق، وسنّة التّداول الحضاري، وسنّة استدراج الكفار وإمهالهم، وسنّة إهلاك المستكبرين والتّمكين للمؤمنين، وسنّة تغيير

المؤمنين لأنفسهم كشرط لتغيّر أحوالهم، وسنّة انهيار الأمم الظالمة عند تحقّق الشروط الموضوعيّة لذلك، وسنة ظهور الفساد بما تكسّن أيدي الناس.

ولكن خلافا للمقاربة القرآنيّة الموضوعيّة والشّاملة والعميقة والغائيّة، قدّمت لنا الرّواية عدّة أفكار مزاجيّة وخاطئة. ومن هذه الأفكار - المضطربة أصلا - القول بانحداريّة الزّمن وتقهره منذ العصر النّبوي، والقول بالخيريّة والرّضى الإلهي المطلق للمؤمنين الذين عايشوا النّبي الكريم (فكرة يُطلق عليها علماء السنّة: "عدالة الصّحابة"، ويرفضها الشيعة ويستعيضون عنها بفكرة "عصمة الأئمّة")، وفكرة افتراق الأئمّة إلى عدد معيّن من الفرق يربو عن السّبعين، واحدة منها فقط هي "الناجية"، أي السّائرة على الهدى في الدنيا والفائزة بالجنّة في الآخرة!!....